

# أساليب المستكبرين في السيطرة والتضليل واستضعاف الشعوب - نماذج قرآنية -

◆ الشيخ محمد أسعد ناصر<sup>(١)</sup>

## ■ خلاصة

تتناول هذه المقالة ظاهرة الاستكبار بوصفها بنية اجتماعية متكررة في الرؤية القرآنية، لا مجرد أحداث تاريخية معزولة؛ حيث تكشف عن الأساليب المنهجية التي يعتمدها المستكبرون في السيطرة على الشعوب وتضليلها واستضعافها. ومن خلال استقراء نماذج قرآنية، يبيّن الكاتب أنّ أدوات الاستكبار تقوم على توظيف القوّة المادية والإعلامية، ضمن مسار تدريجي يبدأ بتفكيك المجتمع، ويمرّ باحتكار المرجعية، وتدمير الوعي، وقلب المفاهيم، وتوظيف النخب، وصولاً إلى صناعة تهديدات وهمية لضبط الجماهير. كما يؤكّد البحث على حيوية القرآن بوصفه مصدراً لتحليل الظواهر الاجتماعية والسياسية المعاصرة، وعلى أنّ مواجهة الاستكبار هي في جوهرها معركة وعي ومعنى قبل أن تكون مواجهة مادية.

**الكلمات المفتاحية:** الاستكبار، الاستضعاف، الهيمنة، التضليل الإعلامي، تفكيك المجتمع، الوعي، السنن الإلهية، الصراع الحضاري.

١ - طالب علوم دينية من لبنان ومدرّس في الحوزة العلميّة - قم المقدّسة.

# Methods of Arrogant in Control, Misleading, Weakening Peoples

## Qur'anic Models

### ◆ Sheikh Mohammad Asaad Nasser

Lebanese student of religious sciences, teacher at the religious seminary [Hawza] in Qom, the Holy City.

### ■ Abstract

This research examines the phenomenon of arrogance as a recurring social structure in the Qur'anic perspective, not merely isolated historical events. It reveals the methodologies employed by the arrogant to control, mislead, and subjugate nations. Through an analysis of Qur'anic examples, the author demonstrates that the tools of arrogance utilize material and media power in a gradual process that begins with the dismantling of society, progresses through the monopolization of religious authority, the destruction of consciousness, the distortion of concepts, the exploitation of elites, and ultimately the fabrication of imaginary threats to control the masses. The research also affirms the vitality of the Qur'an as a source for analyzing contemporary social and political phenomena, emphasizing that confronting arrogance is fundamentally a battle of consciousness and meaning before it is a material confrontation.

### Keywords:

Arrogance, Weakness, Hegemony, Media Manipulation, Dismantling of Society, Awareness, Divine Laws [Sunan], Civilizational Conflict.

## مقدمة

تحدّث القرآن الكريم في مواضع عدّة ضمن سورة وآياته المباركة عن الاستكبار والمُستكبرين، وتعامل معه على أساس كونه بناءً اجتماعياً يجري التأسيس له في المستكبر نفسه وموارد سلطته ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤]؛ حيث يبيّن مجتمعاً قابلاً للاستضعاف، لا على أساس أنّ الاستكبار حالة مفاجئة تكون في التاريخ من دون أسباب أو سياقات اجتماعية. وقد ذمّ -تعالى- المُستكبرين وصرّح بـ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وجعل الاستكبار مقروناً بالكفر؛ حيث قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وعن الإمام الصادق (عليه السلام): «أصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد»<sup>(١)</sup>، وأخبر بأنّ عاقبته في الآخرة دخول النار، فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] وقال: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

مضافاً إلى ذلك، فقد بلور لنا القرآن الكريم حقيقة هذا السياق وطريق المُستكبرين له، فتكلّم عن الأساليب والأدوات التي يتسعملها المستكبر في سبيل تحقيق أهدافه وغاياته من استضعاف الشعوب والسيطرة عليهم وتضليلهم بما يخدم مصالحه على المستوى المادي

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٢٨٩.

والمعنوي والاقتصادي والسياسي، ويكرسه مستكبراً مهيمناً على مَنْ يستضعفهم من خلق الله تعالى. فعرض لنا جملة من المواقف التي واجه فيها الأنبياء (عليهم السلام) والصالحون قوى الاستكبار في زمانهم من أفراد وأقوام، بدءاً من استكبار (إبليس) الذي عصى أمر الله بالسجود لآدم (عليه السلام) ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ومروراً بـ ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩] وغيرهم، وانتهاءً باستكبار قريش على النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) ودينه ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

هذا، والأرض - على مرّ الأزمنة والعصور - لا تخلو من المُستكبرين، فهم موجودون في كل زمان ويستخدمون الأساليب ذاتها للأغراض ذاتها، ويمتلكون الصفات نفسها؛ إذ الاستكبار في اللغة - وكما ورد في القرآن الكريم - اسم معنى ومصدر لـ «استكبر»، وهو بمعنى التعالي، والامتناع عن قبول الحق مُعاندةً و تكبراً<sup>(١)</sup>، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٢٤٣]. والمستكبر من الكبر<sup>(٢)</sup>، صفة فاعل بمعنى متعال ومتعجرف، والمستكبر هو الذي امتنع عن قبول الحق مُعاندةً و تكبراً<sup>(٣)</sup>، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.. وقد عرفه الإمام الشهيد (السيد علي الحسيني الخامني) قُدْرَسَتْهُ - قائد جبهة المستضعفين الذي قضى في مواجهة مستكبري العصر - قائلاً: الاستكبار تعبير قرآني، والشخص المستكبر والحكومة المستكبرة والجماعة المستكبرة هي الجماعة أو الحكومة التي تتفصّد التدخّل في شؤون وأمور البشر والشعوب الأخرى من أجل صيانة مصالحها. وترى نفسها حرةً ولها حق فرض ما تريد فرضه على الشعوب، وتقرّر لنفسها حق

١ - محمد بن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ١٢٦.

٢ - مجموعة من المؤلفين: لسان اللسان (تهذيب لسان العرب)، ج ٢، ص ٤٣٩.

٣ - مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٧٧٣.

التدخل في شؤون البلدان، ولا تتحمل مسؤولية ذلك أمام أي أحد<sup>(١)</sup>.

وعليه، فالقرآن كما تحدّث عن الماضين أشار في ضمن ذلك أيضاً لمن بعدهم فهو - من خلال نصوصه وقواعده؛ إذ إنّ القرآن، كما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام)، «حيّ لم يمّت وإنه يجري كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر ويجري على آخرا كما يجري على أولنا»<sup>(٢)</sup>، وعنه أيضاً (عليه السلام): «القرآن حيّ لا يموت والآية حيّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضين»<sup>(٣)</sup>.

فليس ما نراه اليوم وما نعيشه من أحداث في مواجهة الاستكبار الأمريكي والإسرائيلي الذي يستضعف شعوب المنطقة والعالم، وما عاشته شعوبنا في تاريخنا المعاصر في حقبة الاستعمار الغربي -مثلاً- إلا امتداداً لما سلف من استكبار (فرعون) و(قارون) و(نمرود) وغيرهم من المُستكبرين، واستكمالاً لصراع الحقّ مع الباطل الممتد عبر الزمن. والذي ستكون خاتمته - حسب منطق السنن الإلهية في القرآن الكريم - نصراً مؤزراً للمؤمنين المستضعفين: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥] وهلاكاً للمُستكبرين الكافرين؛ حيث سيكون دأبهم ﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

وتتلخّص استراتيجية المُستكبرين في السيطرة، والتضليل، واستضعاف الشعوب باتّباع مجموعة من الخطوات المترابطة التي تهدف إلى تفكيك المجتمع وتمكين الحكم، وذلك بالاستفادة من أداتين أساسيتين هما: القوّة الماديّة والقوّة الإعلامية، ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. وهذا ما

١ - من كلام له (فده) بمناسبة اليوم الوطني لمقاومة الاستكبار العالمي، ٠٣-١١-٢٠١٣ م - بتصرّف.

٢ - محمد بن مسعود العيّاشي: تفسير العيّاشي، ج ٢، ص ٢٠٣.

٣ - محمد بن مسعود العيّاشي: تفسير العيّاشي، ج ٢، ص ٢٠٣.

سببته في هذه المقالة من خلال استعراض نماذج قرآنية نحاول من خلالها استخلاص أدوات المستكبرين وخطواتهم وتوضيحها، كما سنسعى لتطبيقها على نماذج الاستكبار المعاصر في محاولة للتنبه لها ومعرفة سبل مواجهتها، ومعرفة العدو وتشخيصه تشخيصاً دقيقاً.

## أولاً: نماذج استخدام القوة المادية

استخدم المستكبرون عبر العصور القوة المادية والعسكرية والسياسية لترهيب المستضعفين وصدّهم عن سبيل الله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]. وقد وثق القرآن الكريم هذه الأساليب في مواضع عدة، واصفاً عقلية المستكبرين بأنها لا تؤمن إلا بلغة القوة الغاشمة: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، و﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل: ٣٣]. ومن هذه المواضع والنماذج:

١. التهديد بالسجن، وهو من مظاهر استخدام المستكبرين للسلطة السياسية لتقييد حرّية من يخالفهم الرأي؛ حيث قام (فرعون) بتهديد موسى (عليه السلام) قائلاً: ﴿قَالَ لَئِن أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].
٢. التهديد بالقتل والصلب؛ حيث قام (فرعون) أيضاً بالردّ على إيمان السحرة بالوعيد والتعذيب، ليكونوا عبرة لغيرهم: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤].
٣. التهديد بالنفي والإخراج من الأرض، ونموذجه القرآني تهديد قوم شعيب وقوم لوط لهما (عليهما السلام) بالنفي والإخراج من الأرض بعد رفضهما الانصياع لباطلهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شَعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾: [الأعراف: ٨٨]. ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

٤. التعذيب الجماعي، وهو نموذج للإبادة الجماعية الذي تجلّى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿قَتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُوقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٤٦].

وشواهد استخدام القوّة الماديّة كثيرة في حاضرنا؛ حيث يعمد المُستكبرون إلى تكريس قوتهم ومكتسباتهم المادية التي جَنُوهَا من استكبارهم في سبيل الوصول إلى أهدافهم. وذلك عبر الترويج الصهيوني لمقولات وأفكار، مثل «قوّة الإرغام»، و«فرض السلام بالقوّة»، و«ما لا يأتي بالقوّة يأتي بمزيد من القوّة»، والتطبيق الخارجي لها ما يفعله الأمريكي اليوم -مثلاً- من تهديد ومهاجمة كلّ من يخالفه حتى يخضع لإرادته. وما يقوم به «الإسرائيلي» من مجازر الإبادة والتهجير الجماعي لأهل الأرض في غزّة ولبنان بهدف التوسّع وبسط النفوذ. وما تقوم به بعض الأنظمة المحليّة المستبدّة الحليفة لهما من تعقّبٍ وسجّنٍ بل وقتلٍ أحياناً للمعارضين وأصحاب الرأي المخالف.

### ثانياً: نماذج استخدام القوّة الإعلاميّة

استخدم المُستكبرون «التضليل الإعلامي» باعتباره أداة أساس لتشويه الحقائق، وصرف الناس عن اتباع الأنبياء عليهم السلام، وقد فصل القرآن هذه الأساليب وفق الآتي:

١. قلب الحقائق وممارسة الحرب النفسية؛ حيث اتّهم المُستكبرون الأنبياء عليهم السلام بالجنون والسحر؛ لزعزعة ثقة الناس بالأنبياء عليهم السلام وبتصالهم الوحياني مع الله عزّ وجلّ. وقد أخبرنا -تعالى- عن ذلك في قوله: ﴿وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وفي قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

٢. التشويش الإعلامي ومنع سماع الرأي الآخر، وهذا ما لجأ إليه كفّار قريش، لمنع وصول رسالة القرآن للناس بعد أن اعترفوا بروعة بيانه وعدوبة ألفاظه. قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾  
[فصلت: ٢٦].

٣. استخدام "لهو الحديث" لصرف الانتباه من خلال اعتمادهم بثّ الأساطير لتشيتت الجماهير عن القضايا المهمّة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: ٦].

٤. صناعة دعاية أحادية المنظار "البروباغندا" والزخرف القولي من خلال الاستثمار في الفصاحة والخطابة، لتمرير الباطل في ثوب الحقّ ودسّ السمّ في العسل. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

٥. استخدام المنابر العامة والحشد الجماهيري، لترهيب المستضعفين وتثبيت السلطة. كما فعل (فرعون) عندما جمع الناس ونادى فيهم ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤] ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١].

وموارد استخدام هذه القوّة في واقعنا المعاصر أكثر من أن تُحصى. وتتجلّى بوضوح في السياسات الإعلامية للمحطّات والمنصّات الإعلامية المدعومة ماليّاً، والمنتشرة بكثرة لمخاطبة فئة صغيرة أحياناً، والتي تعمل على بناء السردية، وتكثير الباطل، وإيهام المشاهد والقارئ. وتتجلّى هذه القوّة -أيضاً- في المنابر العلميّة ومراكز الدراسات الموجهة التي تقوم بإدارة الحرب الناعمة، وتمارس ما يُعرف بعمليات المعلومات التي تعمل على كيّ الوعي وتحويل الإدراك والتحكّم بالمعنويّات. وسيأتيك تفصيل هذا في الخطوات الآتية.

### ثالثاً: خطوات التفكيك المنهجي وبسط الهيمنة

يتدرّج المُستكبر في سبيل إحكام سيطرته على المجتمعات والشعوب، باستخدام خطوات

منهجية مترابطة تعتمد على القوة والخداع كما بينا؛ حيث يعتمد أولاً إلى تفكيك الجماعة والمجتمع، لينتقل ثانياً إلى تنصيب نفسه مرجعاً رمزياً للشعوب رغم اختلافاتهم. ويعتمد ثالثاً إلى تدمير وعي الناس وسلب قدرتهم على قياس الحقائق، ثم يقوم رابعاً بقلب المفاهيم وتحريفها، والتشويش على الحق، بحيث يصير الحق باطلاً والباطل حقاً. وبعد ذلك، ينتقل في خطواته الخامسة إلى صناعة النخب والاستفادة منهم لترويج مفاهيمه المغلوطة وتثبيتها، وإعطاء شرعية لسرديته، واعتبارها حقاً، ثم يقوم أخيراً بالترويج لكون الفكر الآخر يشكّل تهديداً لوجود جماعته وللحق المزعوم.

وقد يختلف ترتيب هذه الخطوات بحسب طبيعة التركيب الاجتماعي للجماعة، وظروف عيشها وغيرها من المؤثرات. لكننا عرضنا هنا ما استفدناه من القرآن الكريم ما يمكن أن نعتبره الأكثر انسجاماً في بناء كل خطوة على سابقتها.

### ١ - تفكيك البنية الاجتماعية

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]

يُعدّ تفكيك المجتمع المفتاح الأساس الذي يعتمد عليه المُستكبرون لإحكام السيطرة؛ إذ إنّ قوّة أي مجتمع تنبع من تماسكه الداخلي ووحدة كلمته. لذلك، يسعى الطغاة منذ البداية إلى ضرب هذه الوحدة وتحويل المجتمع إلى كيانات متفرقة يسهل التحكم بها. وفي الآية المذكورة أعلاه قدّم القرآن الكريم نموذجاً واضحاً لهذا الأسلوب في قصة (فرعون). ونستكشف من هذه الآية أنّ العلوّ في الأرض وامتلاك أدوات السلطة واستمرارها مرتبط بتفريق المجتمع، وجعله شيعاً وجماعات مفكّكة؛ وذلك أنّ الاستضعاف ليس نتيجة عرضية لعمل المُستكبرين بل هو نتاج هذا التفكيك والتفريق باستخدام السلطة وأدوات القوّة. ويحصل هذا التفكيك والتفريق بأشكال عدّة، منها إثارة ما يعزّز الانقسامات من نعرات مذهبية، وعرقية،

وسياسية، وغيرها. فتعيش الأفراد في صراع بين الهوية الفرعية والهوية الجامعة، وبهذا تنقلب الصراعات من صراع مع الطاغية إلى صراع بين الشعب ونفسه.

ومن جهة ثانية يؤكد القرآن الكريم على أثر هذا التفكك وخطورته الذي به يتحوّل المجتمع بعد تمزيقه إلى كيان فاقد للقدرة على المواجهة، ما يزيد في استضعاف الأمم والجماعات ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وهذا واضح الخطورة؛ حيث إنّه يُذهب بقوة الجماعة ويعدمها القدرة على المواجهة، ويجعل الروابط منعدمة أو قليلة جداً، الأمر الذي يمنع من تشكّل وعي جماعي موحد. والوعي الجامع هو أكثر ما يهدّد المُستكبر، وبذهابه تنتفي إمكانية بناء روابط رمزية أو حياتية جامعة تكون محرّكاً للقيام في وجه المُستكبر. وهو ما التفت إليه المصلحون، ففي هذا السياق نفهم قول هارون لموسى (عليهما السلام) ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٩٤]. ولأجل ذلك، دعا القرآن الكريم في المقابل إلى التوحّد والالتفاف: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ويتجلّى هذا الأسلوب بوضوح في الواقع المعاصر؛ حيث تبرز مظاهره في سياسات "فرّق تسد" الشهيرة؛ حيث يعمل المُستكبرون على تأجيج النزاعات الطائفية والعرقية داخل الدول من أجل تفرقة الجماعة، ويكتفي بإدارة الصراعات عن بُعد. مضافاً إلى إبراز هذه الخلافات وإشعالها من خلال وسائل إعلامهم التي تعمل على التركيز على هذه الخلافات بشكل يومي. فبريطانيا -مثلاً- تحتضن المؤسسات الإعلامية للمذاهب الإسلامية التي تقوم ببث خطاب الكراهية، والعنف، وتكفير الآخر.

## ٢- احتكار القوّة الرمزية

يعرض القرآن الكريم هذا النموذج بوضوح في خطاب (فرعون)؛ حيث يقول ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ويقول أيضاً ﴿...فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...﴾ [القصص: ٣٨].

هاتان الآيتان لا تعبران فقط عن ادّعاء عقدي بل تكشفان عن مشروع هيمنة رمزية شامل، يقوم على نفي أي مرجعية عليا خارج سيطرة الطاغوت والمُستكبر الحاكم. ف (فرعون) لم يكتفِ بإدارة حكمه بل سعى إلى احتكار تعريف الحقيقة وتحديد مصدر الشرعية، وذلك عندما اعتبر أنّ كلّ ذلك يرجع إليه من خلال إلغاء أي مرجعية بديلة خصوصاً مرجعية الوحي بين الناس.

وإذا أردنا تفصيل هذا النمط من الهيمنة إلى آليات عملية وأساليب تطبيقية، يمكننا إرجاعها إلى:  
 أ. إلغاء المرجعيات العليا؛ سواء الدينية أم الخلقية أم الفكرية، فلا يبقى معيار للحقيقة إلا ما تقرّره السلطة والحكم الطاغوتي: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ب. تقديس السلطة أو شخص الزعيم المُستكبر، سواء بشكل مباشر (كما في فرعون) أم غير مباشر عبر صناعة هالة رمزية حوله تجعل الجماعة تحتاج حتى أن تتنقي العبارات التي تستخدمها ذكراً لهذا الحاكم: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

ج. محاربة البدائل الفكرية والقيمية، خصوصاً الدعوات الإصلاحية التي تعيد ربط الناس بمرجعية مستقلة حقيقية، كدعوات الأنبياء (عليهم السلام) والمصلحين: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

إنّ خطورة هذا الأمر تكمن في تحويل السلطة إلى ما هو أبعد من السلطة السياسية، فسلطة بهذا النحو هي سلطة شاملة تتحكّم بوعي الإنسان والجماعة واعتقاداتهم أيضاً. فقوى الاستكبار لا تكتفي بالسيطرة المادية على المجتمعات بل تسعى إلى السيطرة على البعد الرمزي الذي يشكّل وعي الناس ويحدّد اتجاهاتهم. فالإنسان لا يتحرّك فقط بدافع القوّة بل بدافع المعنى والاعتقاد. ومن هنا تصبح السيطرة على "المرجعية الرمزية" أحد أخطر أدوات الهيمنة؛ حيث إنّ المجتمعات تحتاج إلى هذا البعد لتستند عليه في مواجهة المخاطر

والأزمات والتحديات، مضافاً إلى كونه مصدرًا أساسًا في تحريك إرادة الشعوب نحو الانقياد خلف القيادات، خصوصًا ما يتعلق بالربوبية؛ حيث إنَّ أعظم وأرفع ما ادَّعى في قيادة الشعوب على المستوى الرمزي هو الربوبية، فعندما تُدعى من قبل طاغوت لا يملك زمام أمور نفسه في الحقيقة والواقع، تكون استكبارًا حقيقيًا بكل المعايير.

ويتجلَّى هذا الأسلوب في الواقع المعاصر بصيغ متعددة، منها:

- احتكار الغرب للمرجعية الفكرية للحق والحقيقة، وامتلاك الحصرية في تعريف المصطلحات والمفاهيم الأساسية في الحياة، كـ "الحرية، والعدالة، والإرهاب، والحياة، والسعادة، والحق، والنجاح، و..." . ومن ثمَّ جعل الحياة مبنية عليها لصناعة النموذج الأوحده المتناسب مع قيام هذه الدول المستكبرة وبقاء نموذجهم في الحكم والحياة. وهذا ما يجعل كثيرًا من شعوب العالم مأسورين لنمط التفكير المغلوط الذي فرضه المُستكبرون بما يتناسب مع مصالحهم.
- إقصاء الدين وتحجيمه في المجال العام وبين الناس، وإفراغه من محتواه بجعله مجموعة من الطقوس والعبادات الفرديَّة، بحيث يُفصل عن توجيه الحياة كأنَّه فكرة مجردة لا علاقة لها بالحياة وتوجُّهات الشعوب، وإحلال الفكر القومي مكانه. ما يُحدث فهمًا مغلوطنًا للدين، ويُفقد الناس القدرة على جعل الدين معيارًا للحقائق ومرشدًا في الحياة وتحديد نمط العيش، ما يصيرُه بعيدًا عن معظم هذه الحاجات الفطرية، ويجعل البحث عنه ترفًا فكريًا بالنسبة إلى الغارقين في مستنقع اللهو.
- التحكُّم في الخطاب الإعلامي والثقافي بحيث يعيد تشكيل القيم والمعايير، وهذا من أبرز ما تعمل عليه قوى الاستكبار في عالمنا المعاصر بشكل دائم ولحظي. فإنَّ منصَّات الإعلام التي تعمل لأجل حرف المفاهيم وتشويهها، مضافًا إلى تشكيل المعايير والقيم المزيَّفة تكاد تصل إلى كل عائلة وكل بيت وكل فرد من أفراد المجتمعات البشرية في مشارق الأرض ومغاربها.

وفي سياق المواجهة لهذا الأسلوب، ذكر القرآن الكريم طرق الأنبياء (عليهم السلام) في صدّ عمل المُستكبرين، ومنها قصة نبي الله موسى (عليه السلام)؛ حيث أعاد بناء المرجعية الرمزية الحقيقية وإحيائها في نفوس الناس من خلال ربط الناس بالله -تعالى- بما هو الأصل الذي ينبغي الرجوع إليه وحده: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨]. فَإِنَّ لِلَّهِ الْقِيُومِيَّةَ الْوَاقِعِيَّةَ عَلَى الْكُونِ وَالنَّاسِ وَالْجَمَاعَاتِ وَالْحُكَّامِ: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. ومن جهة ثانية، قدّم النبي (صلى الله عليه وآله) معجزات تكسر احتكار المعنى الذي فرضه فرعون المُستكبر، ففجّر لهم الماء في الصحراء: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، وظلّهم بالغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى: ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، وأحيا لهم الموتى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]. وهذا ما كان مواجهة بكل ما للكلمة من معنى، يفوق المواجهات العسكرية في أثرها؛ حيث إنَّها صراع على تعريف الحقيقة وإيصاله إلى الناس.

### ٣- تدمير الوعي عبر التضليل والاستخفاف بالعقول:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

تُبرز الآية علاقةً عليّةً واضحةً بين استخفاف القوم -أي إضعاف عقولهم ووعيهم- وبين طاعتهم للمُستكبر بما هي نتيجة للاستخفاف. والاستخفاف يجري عبر الإضلال بمعنى تفرغ الإنسان من قدرته على التفكير المستقلّ والصحيح. فالطاعة هنا - لا أقل في بداية الأمر - لم تكن نتيجة قناعة حقيقية بل نتيجة تشوّه في الوعي وتعطيل في الفكر. وإذا كان تفكيك المجتمع يُضعف قوّته الخارجية، واحتكار المرجعية الرمزية يسيطر على مصدر التوجيه ويُبعد الناس عن الحقيقة، فإنَّ تدمير الوعي يُعدّ أخطر مرحلة في مشروع

الاستكبار؛ لأنه يستهدف قدرة الإنسان على التفكير والفهم والتمييز. فالمجتمع الذي يفقد وعيه لا يحتاج إلى قمع دائم، بل يتحوّل إلى أداة طيّعة بيد المستكبر ﴿فَأطَاعُوهُ﴾. فهو مجتمع فاقد لأدواته التي بها يقيس الحق، وهذا أخطر من البُعد عن الحق نفسه؛ حيث إنّه لا يمكن للإنسان الذي يكون كذلك أن يميّز بين الحق وغيره، فهو خال من كل معيار ومقياس. وقد اعتمد المُستكبرون عبر العصور آليّات وطرق لتثبيت هذا النوع من أساليب الاستكبار. أبرزها:

أ. تبسيط القضايا المعقّدة بشكل مُضلل؛ أي جعل الواقع مختزلاً في شعارات سطحية تمنع من الفهم العميق. فنجد أنّ تمام هموم بعض الأقسام التابعة للطاغوت والمطيعة له هي تلبية نداءات أعدّها المُستكبر مُسبقاً بغض النظر عن الالتفات إلى سياقات هذه الشعارات ونسبتها إلى الحقيقة. ف (فرعون) -مثلاً- اختصر دعوة موسى الإصلاحية في أنّها مجرد "مؤامرة سياسية" للاستيلاء على السلطة ﴿قَالَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ \* يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥].

ب. إغراق الناس بالهموم التفصيلية اليومية والسطحية؛ سواء ما له علاقة بهموم الحياة أم حياة المستكبر أم طرق الترفيه وغيرها، ما يجعل الجماعة منشغلة عن التفكير والتأمّل بما يوصل إلى حقائق الأمور وواقع التفسير: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

ج. إضعاف القدرة النقدية من خلال تخويف الناس من التشكيك أو طرح الأسئلة، وذلك من خلال وسائل متعدّدة، منها ما هو قمعي وترهيبى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، ومنها يكون عبر حرف السياق في الأسئلة الشائعة نحو مواضيع لا دخالة لها بموضوع الحكم والاستكبار. د. إعادة توجيه الإدراك الجمعي، بحيث يكون التفسير للواقع منحصرًا بزواية نظر

واحدة لا ثانية لها، كأنَّ الذي يفكر من غير الزاوية التي يريدُها المُستكبر يكون خارجاً عن طبيعة الناس وتفكيرهم العرفي. ومن ذلك وصف (فرعون) لموسى عليه السلام بأنَّه خارج عن المنطق العرفي للناس: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

٥. ربط الطاعة بالمصلحة والاستقلال بالخوف، وهذا ما يجعل التفكير المستقل البعيد عن التفكير الطاعني بين الجماعة يحتاج إلى تضحية وتكلفة نفسية واجتماعية قد تصل إلى التضحية بالمفكر نفسه وروحه. فعندما بدأ السحرة يطرحون رؤية نقدية لواقع (فرعون)، كان الرد فورياً بالترهيب: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

هذا، ويمكن ملاحظة تطبيقات هذه الخطوة في عصرنا من قبل مستكبريه؛ حيث إنهم يعمدون مثلاً إلى:

- زيادة الأعباء والهموم الحياتية اليومية من خلال نشر ثقافة الاستهلاك والإنتاج الدوري للعلام التجارية للهواتف والسيارات وغيرها.
- زيادة كلفة نصره الحق من خلال القمع والقتل والحروب من جهة، والترغيب بالانصياع للاستكبار الذي يؤمن نموذج حياة أفضل، كما حصل في الترويج لفكرة "الحلم الأمريكي".

- تضخيم قضايا ثانوية لصرف النظر عن قضايا مصيرية ومحورية لتتبع دون تمحيص أو تدقيق أو غوص في معانيها الحقيقية، وذلك عبر خلق دوارج "Trends" وسائل التواصل، وصيحات الموضة، ومشاركة حياة المشاهير. فنجد أنَّ حركة مشهور ما قد تأخذ ضجة تفوق ضجة مجازر بحق ما يقارب ٨٠ ألف إنسان في بقعة جغرافية صغيرة كـ "غزة".

وقد تبين في هذه النقطة أنَّ الاستخفاف بالعقول ليس مجرد وسيلة من وسائل الاستكبار

بل هو أداة مركزية لتحويل الشعوب إلى كيانات مُتقادة، فحين يُدمر الوعي، تصبح الطاعة تلقائية، ويغيب الإدراك بحقيقة الصراع، ما يضمن للمستكبر استمرار هيمنته بأقل تكلفة ممكنة. وهذا ما ينتج أبعد من مجرد فهم خاطئ للحقائق؛ حيث إنّه يجعل الجماعة والأفراد في وضع نفسي بعيد عن قابليتهم للتفكير الصحيح، كأنّهم منصرفون ومنشغلون عنه بل غير قادرين عليه.

#### ٤- إعادة تشكيل الحقيقة عبر قلب المفاهيم والمعايير

يُجسّد القرآن الكريم هذا الأسلوب في مواقف متعدّدة للمستكبرين وما أنتجوه من قلب للمفاهيم لدى أتباعهم في مواجهة الأنبياء، ومنها قول قوم نوح له (عليه السلام): ﴿إِنَّا لَنرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]. فهنا لا يقتصر الأمر على رفض دعوة النبي (عليه السلام) بل يصل إلى حدّ اتهامه بالضلال. وهذا قلب كامل للحقيقة؛ إذ يوصّف المصلح بالضال، ويُقدّم الانحراف الذي هم فيه على أنّه هو الصواب ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فإذا نجح المستكبر في إضعاف وعي الناس، ينتقل بعد ذلك إلى مرحلة خطيرة أيضاً يبني فيها على هذا الإضعاف. وهي إعادة تشكيل إدراكهم للحقيقة نفسها، فلا يكتفي بتضليلهم عبر سلب قدرتهم على القياس الصحيح بل يعمل على قلب المعايير والمقاييس عندهم بحيث يصبح الباطل حقاً، والحقّ باطلاً كما أسلفنا. وهنا مكمّن الخطورة في هذا الأسلوب، فهو يمنع الناس عن رؤية الحقيقة؛ حيث يقفون في مقابلها ويرفضونها كلّما ظهرت بفكرهم وشعورهم المولدين للإرادة. وهذا ما فعلته قريش ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]. مضافاً إلى اعتبارهم دعوة الأنبياء خطراً على المجتمع؛ حيث طالبت قريشاً النبيّ محمّداً (صلى الله عليه وآله) بتبديل القرآن بما يتماشى مع أفكارهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]،

ما يدلّ على أنّ موقع الحقّ مزيف في وعي الناس، وأنّ الصراع لم يكن على السلطة فقط بل على تعريف الحقيقة ذاتها. وإذا أردنا التفصيل في آليات عمل المُستكبرين في هذه الخطوة، تبرز عندنا المواقف المترابطة الآتية:

أ. تشويه صورة المصلحين عبر اتهامهم بالضلال، والفساد، والعمالة، وغيرها من أوصاف تكشف عن أنّ المفاهيم في أذهان المجتمع زرعت بشكل مغلوط ومخالف للحقيقة: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

ب. إعادة تعريف القيم: حيث يُقدّم الظلم على أنّه ضرورة مثلاً، والفساد على أنّه مصلحة لا بدّ منها. وهذا ما يخلط المفاهيم؛ لأنّه يزيل الحدود الواضحة بين الحقّ والباطل، والخير والشرّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

ج. صناعة خطاب مضادّ للحقيقة، يجري تكراره وتكريسه حتى يتحوّل إلى وعي عام جديد تُنبذ معه الحقائق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. هذا، وإنّ الاستكبار المعاصر امتداد للاستكبار على مرّ العصور، لذا فهو يستعمل هذه الأساليب الخبيثة والمضلّلة نفسها، ففي زماننا يبرز هذا الأسلوب بأشكال متعدّدة، أبرزها:

- د. وصم حركات المقاومة، وحركات التحرّر، والاستقلال، والإصلاح، بأوصاف سلبية لا يصحّ أن يتّصف بها إلا الضالّ أو الشرير لتشويه صورتها.
- هـ. تقديم حركات الهيمنة أو التدخّل الخارجي غير المحقّ من قبل المُستكبر والطاغوت في بعض المجتمعات على أنّها حركات حماية وإصلاح.
- و. استخدام وسائل الإعلام لإعادة صياغة الأحداث، بحيث تُظهر المُستكبر على أنّه

الضحية والمظلوم الذي يسعى إلى استنقاذ حقه، كما يحصل الآن في ادعاءات العدو الصهيوي-أمريكي تجاه إيران ومحور المقاومة. وهكذا، يجري تسويق الباطل باعتباره حقيقة مطلقة مفروضة على الشعوب. وهي مرحلة متقدّمة من مشروع الاستكبار؛ حيث لا يعود الصراع ظاهراً بين الحق والباطل لدى أتباع المستكبر بل يتحول إلى صراع داخل وعي الإنسان نفسه.

#### ٥- تثبيت الهيمنة عبر توظيف النخب وصناعة الشرعية

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ \* يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠]

تشير هذه الآية إلى محوريّة دور الملاء وأهميته إلى جانب المستكبر. فهم من بادروا إلى التحريض وصياغة الخطاب الذي يصور نبي الله موسى (عليه السلام) مفسداً في الأرض وصاحب مشروع وأغراض شخصية؛ إذ لا يمكن لقوى الاستكبار أن تحكّم المجتمعات بالقوة المجردة وحدها؛ لأنّ القمع المباشر مكلف وغير مستدام. لذلك تعود إلى ممارسة السطوة الفكرية عبر الإعلام، وتجري هذه المرّة عبر طبقة وسطية من «النخب» تكون الأبرز والأعلم بين الناس، وتقوم ببنائها بنفسها. وقد عبّر القرآن عنها باسم «الملاء»، وهم أصحاب النفوذ والقادة في المجتمع أو الوجوه المؤثرة فيه، فقليل إنهم سمّوا ملاء لأنّهم يملؤون العيون هيبة، أو لأنّهم يملؤون المجال العام حضوراً وتأثيراً. وهذا ما يوضّح محوريّة هذه النخب المعينة للمستكبر؛ حيث تقوم بالدفاع عن سلطة المستكبر وتبريرها، ومهاجمة خصومها من جهة: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، والترويج لكونها الحق من جهة أخرى: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، فتتحوّل الهيمنة من حالة مفروضة إلى حالة تبدو كأنّها مقبولة اجتماعياً بل قانونياً وفكرياً.

وقد اعتمد الاستكبار على عدة وسائل لضمان ولاء هذه الطبقة وتوظيفها. ومن أبرزها شراء الولاءات عبر المال والمناصب والامتيازات، ودمج مصالح النخبة بمصالح النظام فلا يعود بإمكانها الانفصال عنه: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ \* قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤]. واللجوء لتخويفهم حيث يلزم: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ... فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَأَلْصِقَ بَنَاتِكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

ويتجلى هذا الأسلوب في الاستكبار المعاصر بوضوح من خلال:

- أ. صناعة النخب السياسية والإعلامية واستخدامها لتبرير السياسات الاستكبارية، خصوصاً شرعنة أفعال المستكبرين قانونياً ودولياً.
- ب. توظيف بعض المثقفين أو المؤثرين في صناعة خطاب يخدم السلطة.
- ج. خلق موجة رأي عام عبر شخصيات تبدو مستقلة، لكنها مرتبطة بالنظام الاستكباري.
- د. تقديم قرارات هيمنة كبرى على أنها إجماع نخبوي، مع أن النخب المجمعمة هي التي تدعم المستكبر دون غيره.
- هـ. تشويه صورة أي نخبة معارضة عبر الحرب الإعلامية والثقافية، وذلك من خلال تكثيف الضغط الإعلامي وضخ الأكاذيب بين الناس.

وهذا الدور للنخب يعدّ في غاية الخطورة؛ حيث إنه يثبّت السلطة الأعلى للمستكبر عبر دعمهم للحاكم وتقديم المشورة له من جهة، وضبط المجتمع من الأسفل عبر تأثيرهم على الجماهير وتوجيه مواقفهم من جهة ثانية. وهذا ما يجعلهم حلقة وصل تجعل الاستكبار ظاهراً بشاكلة أنيقة متناسقة غير فجّة بالنسبة إلى كثير من الجماعات. ففي كثير من الأحيان يثق الناس بالنخب أكثر من السلطة نفسها، ما يجعل تأثيرها أشدّ خطورة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٧]. ولذا، فإنّ توظيف النخب ليس مجرد أداة مساندة للاستكبار بل هو ركيزة أساس في استمراره. فبواسطتهم تتحوّل الهيمنة من

قسر ظاهر إلى قبول في نفوس الجماعات، وتُصاغ الشرعية التي تضمن بقاء النظام الطاغوتي، حتى في ظل وجود الرفض الشعبي الكامن في بعض الأحيان.

## ٦- تعبئة الجماهير عبر صناعة التهديدات الوهمية

﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

يُصَوِّرُ لَنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَا الْأَسْلُوبَ فِي قَوْلِ (فِرْعَوْنَ) الْمَتَقَدِّمِ؛ حَيْثُ تَكْشِفُ هَذِهِ الْآيَةُ بوضوح أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَنْكُرْ دَعْوَةَ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَقَطْ، بَلْ أَعَادَ تَأْطِيرَهَا بِوَصْفِهَا خَطَرًا وَجُودِيًّا يَهْدِدُ الْجَمَاعَةَ. فَبَدَلَ أَنْ تَظْهَرَ دَعْوَةُ النَّبِيِّ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَنَّهَا تَحْرِيرٌ لَهُمْ مِنْ هَيْمَنَةِ (فِرْعَوْنَ) الطَّاغِيَةِ، صُوِّرَتْ عَلَى أَنَّهَا تَهْدِيدٌ لِدِينِهِمْ وَخَطَرٌ عَلَى مُسْتَقْبَلِهِمْ وَاسْتِقْرَارِهِمْ، وَهَذَا مَا يُمَثِّلُ ذُرْوَةَ عَمَلِ الْمَنْظُومَةِ الْاسْتِكْبَارِيَّةِ، وَقِمَّةَ التَّلَاعِبِ بِالْوَعْيِ الْمَبْنِيِّ عَلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ نِقَاطٍ تَجَهَّزَ الْأَرْضِيَّةُ لِمِثْلِ هَذَا الطَّرْحِ الَّذِي يَجْعَلُ الْحَقَّ تَهْدِيدًا، وَالباطل استقرارًا بالنسبة إلى أتباعه. وهنا تبرز علاقة هذه الخطوة مع الخطوات السابقة، فهي تعتمد على جميع ما مرَّ، خصوصًا في ما يتعلَّق بالاستخفاف بالعقول، وقلب المفاهيم، وترويج النخب له.

وتعتمد هذه الخطوة على جملة من الأساليب التفصيلية، أبرزها:

أ. تضخيم خطر معين أو اختلاقه، بحيث يبدو كأنه يهدد وجود المجتمع: ﴿يُرِيدُ أَنْ

يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠].

ب. ربط هذا الخطر بالقيم، والدين، والأمن، والاستقرار: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ

الْمُنْتَلَى﴾ [طه: ٦٣].

ج. إثارة الخوف الجمعي: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ...﴾ [الشعراء: ٣٥].

د. تقديم السلطة الاستكبارية على أنها طريق الحق الوحيد، ومصدر الأمان من هذا

التهديد: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ... وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ه. تجريم أي معارضة باعتبارها دعمًا للخطر الذي اختلقه لهم: ﴿...إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ

الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ ﴿طه: ٧١﴾.

ويتجلّى هذا الأسلوب بوضوح في زماننا المعاصر، وذلك من خلال:

■ تصوير بعض الحركات الإصلاحية أو التحررية على أنّها تهديد للاستقرار في منطقة ما. وهو ما يحصل بالنسبة إلى أهل فلسطين الساعين نحو تحرّهم، فيبرز هذا التحرر على أنّهم تهديد لأمن المنطقة مثلاً.

■ تضخيم الخطر الخارجي لتبرير سياسات داخلية وتميرها، أو تبرير التداخلات في الشعوب الأخرى، ونموذجه تبرير غزو العراق لتدمير أسلحة الدمار الشامل، واختطاف رئيس فنزويلا بدعوى اتّجاره بالمخدرات، والعدوان على إيران بدعوى منعها من صناعة القنبلة التووية.

■ تصوير أي تغيير محتمل في النظام والأنظمة الحليفة بأنّه يؤدّي إلى الفوضى أو الانهيار ما يجعل التحرك والتحرر خطراً في أذهان الناس، وأنّ بقاءه أنفع لمصلحة الناس.

■ استخدام مصطلحات تعزّز البحث عن الحماية داخل النظام الاستكباري، كالأمن القومي أو حماية القيم بل الاستفادة من هذه المصطلحات حتى لتبرير قمع الحركات التحررية.

■ خلق حالة دائمة من القلق تجعل الناس تشعر بالحاجة إلى الحماية ودفع الخطر الوجودي لا إلى الحرية، ما يؤدّي بهم إلى التنازل عن حقوقهم ومحاربة من يسعى إلى التحرر، وذلك بدافع الخوف لا القناعة. ونموذجه ما يحصل من دعوة اللبنايين للتطبيع مع إسرائيل ومحاربة المقاومة باعتباره حلاً وحيداً لدفع وحشيتها.

وهذه الصناعة للتهديدات الوهمية تمثّل المرحلة التي يبلغ فيها الاستكبار ذروة إحكامه للسيطرة؛ حيث لا يكتفي بإخضاع الناس بل يدفعهم للدفاع عنه، وعندها يتحوّل الصراع من مواجهة بين المستكبرين والمستضعفين، إلى صراع داخل وعي الجماهير نفسها، ما يضمن

استمرار الهيمنة للمستكبرين على هؤلاء التابعين، وذلك من خلال هذه الأدوات النفسية والمعنوية المؤثرة.

### خاتمة

يتبين لنا من خلال هذا العرض أنّ القرآن الكريم لم يتناول ظاهرة الاستكبار بوصفها حالات تاريخية منفصلة بل قدّمها بوصفها نموذجاً بنوياً متكرراً تحكمه سنن اجتماعية ثابتة، يمكن رصدها وتحليلها واستحضارها في مختلف الأزمنة. فالمستكبر - في المنظار القرآني - ليس مجرد فرد متعال بل هو منظومة متكاملة توظف القوة المادية والرمزية والإعلامية لإعادة تشكيل الواقع والوعي بما يخدم مصالحها.

وقد أظهر البحث أنّ أساليب المستكبرين تتخذ طابعاً منهجياً متدرجاً، يبدأ بتفكيك البنية الاجتماعية، ويمرّ باحتكار المرجعية الرمزية، وتدمير الوعي، وقلب المفاهيم، وتوظيف النخب، وينتهي بصناعة التهديدات الوهمية لتعبئة الجماهير. وهذا التدرج يكشف عن عقل استراتيجي يدير عملية الهيمنة، لا عن ممارسات عشوائية أو ظرفية.

ومن الناحية المنهجية، يثبت هذا البحث إمكانية اعتماد القرآن الكريم مصدراً لتحليل الظواهر الاجتماعية والسياسية، من خلال منهج الاستقراء الموضوعي للآيات وربطها بسياقاتها التاريخية والسُّننية، ثم إسقاطها على الواقع المعاصر بوصفها قوانين جارية لا تختص بزمن دون آخر. وهذا ما يؤكد حيوية النصّ القرآني وقدرته على إنتاج معرفة تفسيرية تتجاوز حدود التفسير التقليدي إلى مجالات التحليل الحضاري والاجتماعي.

كما يبرز أنّ مواجهة الاستكبار - وفق المنطق القرآني - لا تقتصر على البُعد العسكري أو السياسي بل هي في جوهرها معركة وعي ومعنى، تبدأ بإعادة بناء الإنسان فكرياً وروحياً، وإحياء المرجعية الإلهية، واستعادة القدرة على التمييز بين الحقّ والباطل. فحيثما يُستعاد

الوَعِي، تَتَرَجَعُ الْهَيْمَنَةُ، وَحَيْثَمَا يُدْمَرُ، تَتَرَسَّخُ.  
وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ أَهَمَّ مَا يُمْكِنُ الْخُرُوجُ بِهِ هُوَ أَنَّ فَهْمَ أَسَالِيبِ الْاسْتِكْبَارِ لَيْسَ غَايَةَ مَعْرِفِيَّةٍ  
فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ شَرْطٌ أَسَاسٌ فِي بِنَاءِ اسْتِرَاطِيَجِيَّاتِ الْمَوَاجَهَةِ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ مَقَاوِمَةُ مَنْظُومَةٍ  
مَعْقَدَةٍ دُونَ وَعِيٍّ دَقِيقٍ بِأَدْوَاتِهَا وَأَلْيَاتِ عَمَلِهَا. وَمِنْ هُنَا، تَبْرُزُ الْحَاجَةُ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الدِّرَاسَاتِ  
الْقُرْآنِيَّةِ التَّطْبِيقِيَّةِ الَّتِي تَرْبِطُ النَّصَّ بِالْوَاقِعِ، وَتَحَوِّلُ الْهَدْيَ الْإِلَهِيَّ إِلَى أَدْوَاتٍ فَعَّالَةٍ فِي تَشْخِصِ  
التَّحْدِيَّاتِ وَصِيَاغَةِ الْحُلُولِ.

## لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، تحقيق: علي أكبر غفاري، طهران، دار الكتب الإسلامية، ط ٤، ١٤٠٧ هـ.ق.
- محمد بن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط ٣، ١٤١٤ هـ.ق.
- مجموعة من المؤلفين: لسان اللسان (تهذيب لسان العرب)، تحقيق المكتب الثقافي لتحقيق الكتب، بيروت، دار الكتب العلمية، لا ط، ١٩٩٣ م.
- مجموعة من المؤلفين (مجمع اللغة العربية بالقاهرة): المعجم الوسيط، دار الدعوة، لا ط، لا ت.
- كلمة الإمام الخامني (قده) بمناسبة اليوم الوطني لمقاومة الاستكبار العالمي، ١١-٠٣-٢٠١٣ م، <https://arabic.khamenei.ir/news/2337>
- محمد بن مسعود العياشي: تفسير العياشي، طهران، المكتبة العلمية، ط ١، ١٣٨٠ هـ.ق.